التديّن في عالم اليوم

التديّن في عالم اليوم (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

ما موقعُ الدّين في عصرنا؟ وما معاناةُ المُتَدَيّن ومسئولياتُه؟

هذا هو السُّؤال.

إذن فلتسمحوا لي بإعادة صياغته بدقّة أكبر، فأقول: «أين موقعنا نحن في عالم اليوم؟».

وبطبيعة الحال، فإنَّ من الممكن تفسير الضمير «نحن» على وجوه وبمعان شتّى، والعثور على دلالات كثيرة له. بَيْدَ أنَّ ما نعنيه ويَتَّسقُ وطبيعة بحثنا هو مجموعنا نحن المُتَدَيّنين، مسلمين ومسيحيّين ويهودا، وغيرنا، ممَّن يعيش خارج الحدود الرَّسمية للحضارة الغربية. ولكن وما دَمْتُ من يسأل، وطبيعة اهتماماتي هي ما هي، فإنني أقول على نحو أدقّ أيضا بأنَّ المعنيَّ بالضمير «نحن» هنا إنّما هم نحن المسلمين، على رغم أنّه من المُمْكن أنْ يكونَ المُخاطَب أيضا لا يدين بالإسلام، يعني أنّه من الممكن للسَؤال، إن حُوِّرت صيغته

(*) محاضرة ألقيت في «دار الندوة» ببيروت في الرابع من ديسمبر (كانون الأول) عام ١٩٩٦ بدعوة مشتركة من الدار المذكورة والحركة الثقافية في أنطلياس.

قليلاً، أنْ يَحْظى باهتمام كلّ الذين يُراودُهُم هاجسُ الحياة الإنسانية وينشدون العزّة والكرامة، من غير المسلمين.

أجل، إنَّني أتساءل عن «الدين» بصفتي مسلما يريد أنْ يعيش عصره مُتَطَلِّعا إلى المستقبل، ويرغب في دور لنفسه مُشَرِّف في بناء هذا المستقبل وفي سبيل تقدّمه. وهو تساؤل «من الذات» بمعنى أنَّني لا أنظر إلى الدين منْ خارجه وكأنَّني إنسان محايد لا رأيَ له، بل إنَّني أنظر نظرةَ مسلم يرنو إلى الحقيقة، وإنْ كان لا مندوحةَ لنا عن النَّظر إلى الدين من الخارج كَيْلا نُبْتَلى بتعصّبٍ لا مُبَرِّر له، وكَيْلا نقع في شرك النظرة الذاتية العمياء.

وأنا عندما أتساءل عن موقعنا، نحن المسلمين، في عصرنا هذا، فلا بدّ من أنْ يكون قُطْبا السُّؤال واضحَيْن في ذهْن المُخاطَب. بالضّمير «نَحْنُ» أعني في هذا المقام نحن المسلمين مَع التأكيد على ملاحظة أنّنا كنّا ذات يوم أصحاب حضارة، وكان لنا دور في التّاريخ الإنساني، وأنّنا اليوم نفتقر إلى الاثنين: الدور والموقع معا، ونريد في الوقت نفسه استعادة موقعنا في التّاريخ وأنْ نصنع، ما وسعنا ذلك، مُسْتقبلاً لنا يختلف عن واقعنا بل وعن ماضينا أيضا، دون أنْ يُؤذي ذلك أحدا، ودون أنْ نتجاهل معطيات المعرفة وإنجازات الفكر الإنساني النَّظرية والتَّجريبية.

وأمّا ما أعنيه بقولي «عالم اليوم»، فهو باختصار «حضارة الغرب» أي ما يسود العالم والإنسان، ويُحْكِمُ السَّيطرة عليهما معًا. إنَّه ما يترك أثره القويّ على حياتنا في سائرَ سُبُلها الاقتصادية والسياسية

والثقافية والاجتماعية معا في آن واحد. إنَّه هذا الذي لا تَتَيَسَّر بدون ما قدّم وأنجز، لا تَتَيَسّر الحياة لغير الغربيين، ولنضرب مثلاً قريبا: ففي هذا المكان الذي يَضُمُّنا ونتباحث فيه، تتجلّى آثار المدنية الغربية أنّى التفتنا: في تصميم البناء وفي أثاثه ورياشه وفي المدينة حيث يقع هذا المبنى وفي وسائل الاتّصال وبخاصّة وسائل الإعلام، بل وفي هذا المذياع الذي ينقل صوتي إليكم وفي أمور أخرى عديدة لا سبيل لتعدادها.

وعالم اليوم هو عالم الغرب؛ الفكريّ والأخلاقيّ والفنّيّ، وليس مقصورا على الموقع الجغرافي وحده، ذلك أنّ مَنْ هُمْ خارج المساحة الجغرافية وخارج إطار الحضارة الغربية، حتّى هؤلاء، يقعون وبشدّة، تحت تأثير هذه الحضارة، ولا تَتَيَسّر حياتهم من دونها. إنَّه عالمنا المعاصر. وليس خفيّا أنَّ الغَرْبَ قد قَدَّمَ للإنسان إنجازات وثمارًا عظيمةً، وابتلاه في الوقت عينه بمشكلات ومعضلات جمّة، بَيْدَ أنَّ هذا هو شأن كلّ ظاهرة بشرية، يتّسع مداه أو يضيق.

ولكن ثمّة ملاحظة جديرة بالاهتمام، وخلاصتها أنّ مشكلاتنا بالمقارنة مع مشكلات الغربيّين تبدو مضاعفة، فما سرُّ ذلك؟ السِّرُّ هو في أنَّ ثقافة الغربي منسجمة مع حضارته، على الأقلّ، وهو بالتالي لا يُعاني من اهتزاز في الشخصية. أمّا نحن فمشكلتنا مضاعفة لأن حياتنا ـ الشخصية والاجتماعية ـ متأثّرة أشدّ التأثّر بالغرب، ومن دون أنْ نأخذ بأسُس الحضارة الغربية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنَّ ثقافتنا أو بعض جوانب من السائد منها ممّا يَرْسُمُ شخصيّتنا وأفكارنا، تنتمي إلى حضارة انتهى عصرها. على أنَّ هذا موضوع لن أفيض فيه

لأنَّه أوسع من أنْ نخوض فيه في مقامنا هذا، ولذا فإنني أتركه إلى فرصة أخرى. ولكنني أبادر هنا لأضيف فورا بأنّنا على رغم افتقارنا إلى تعريفات مُحَدَّدة لمقولات كالحضارة والثقافة، فإنّني أعني بالحضارة في بحثي هذا الآثار المادّية للحياة الاجتماعية وجميع المراكز والمؤسَّسات الّتي تنبض بالحياة، أي المؤسّسات الاقتصادية والسياسية والصناعية وغيرها، والّتي تُشكّل أطُر الحياة العملية والاجتماعية، وأعني بالثقافة المعتقدات والعادات والتقاليد والتراث الفكري والعاطفي الّذي تمتدّ جذوره في المجتمع.

من المُمْكن أنْ يعتبر البعض أنَّ هذه الأزمة قد انتقلت إلينا أيضا عن طريق تأثّرنا بالغرب. ولكن، في الحقيقة، إنَّ أزمة الشعوب والبلدان غير الغربية تَكْمُنُ في أنَّ الثقافة التي تحكمنا، أو لنقل يحكمنا جانب منها، لا تنسجم مع الحضارة التي تشكّل، إلى حدّ ما، أساس حياتنا العملية، وأنَّ هذا التناقض الذي يُعاني منه الغرب بدرجة أقلّ، هو ما يضاعف الأزمة في حياة معظمنا نحن غير الغربيين.

وأضيف أنَّ الفصل بين المَدَنيَّة والثقافة بالمعنى الّذي أشرتُ إليه أمرٌ ممكن، يعني أنَّه منَ المُمْكن للثقافة المنسجمة مع الحضارة، نظرًا لامتداد جذورهاَ في ذات كُلِّ إنسان، أنْ تبقى آثارها لمدى طويل بعد تدهور الحضارة واضمحلالها. وبما أنَّ الحضارة هي من الثقافة بمثابة القاعدة، من جهات عديدة، لذا فإن الثقافة، ونتيجة لهذا الفصل والانفكاك، لا تفقد قدرتها على العطاء، وتتحوّل إلى عقبة وعامل إعاقة وحسب، بل وتضمحلّ أوّلا فأوّلا لافتقارها إلى القاعدة والأساس.

بلى، إنَّ إحدى أعظم مشكلاتنا تكمن في أنَّ ثقافتنا أو الجوانب المهمة منها، تنتمي إلى حضارة قد غبَرَ عصرُها منذ قرون، وأنَّ حياتنا واقعة تحت تأثير حضارة جديدة تقتضي ثقافة تنسجم معها. هذا هو «عالمنا».

نعود الآن إلى سؤالنا الأول في بحثنا هذا فَنُكَرِّره بوضوح أكبر وصراحة أوفر: نحن كمسلمين نسعى إلى حياة كريمة ولا نُريدُ التَّخلّي عن هويّتنا التاريخية والّتي تعني لنا الإسلام؛ ماذا ينبغي علينا أن نفعل؟

أرجو أنْ لا تنتظروا منّي أطروحةً ما، فأنا أعترف بعجزي الفكريِّ والعلميِّ عن مثْل ذلك، ناهيك من أنَّ حياةَ الإنسان لا يتمّ إصلاحها بأطروحة. فمَثلاً لقد كانت أطروحات ماركس وأنجلز هي الأكثر فاعلية ذات حين، ولكنّكم قد وقفتم على النتيجة على رغم ما للرَّجلين من مزايا تُحمد. وماركس كان، للإنصاف، رجلاً ذكيّا وفطنا وأحد أبرز الخبراء في اكتشاف عُيوب رأسمالية الحضارة الغربية، ولكن، وعلى رغم ذلك، فإنَّ نتيجة ما فعله بارزة للعيان.

فلنعترف بكلّ صدق بأنَّ الحياة إنْ هي إلاّ جهودٌ ومساعٍ عامّة ومتواضعة، ولا تَتَقَدَّم إلاّ بالتّعاون وتضافر الجهود وتبادلِ الآراء وتلاقُح الأفكار، وبالتذكير الدائم بمحدودية ما يطرحه الإنسان من آراء وأفكار ووجهات نظر. وبالطَّبع فإنّ ما نثيره هنا لَيْسَ بأكثر من جُمْلَة تصوّرات، وليس بالأمر الجازم والنهائيّ. إنَّ المطلوب إنَّما هو

فتح الأبواب أمام البحث والحوار والمشاركة الواعية وبالطبع الصادقة والمخلصة في خضمّ الأسئلة والبحث عن أجوبة جادّة لها.

اسمحوا لي، أوّل الأمر، أنْ أشير إلى بعض المُلاحظات عن «الدين» لكي نصل من ثمّ إلى ما نُسمّيه استنتاجا:

أولاً: الدّين توءم الإنسان وأقْدَمُ الموجودات البشرية. وحياة الإنسان منْ غَيْر دين ومن دون التّسليم لأمر مُتعال وسام لا معنى لها. فالدين فَي عُمْق وجود الإنسان، شاء ذلكَ أم أبَى، هوَ علامةٌ على الغَيْب الذي لا نَهاية له، والإنسان يدرك ذلك من صميم قلبه ومنْ أعماق روحه. الإنسان موجود يعي هذه الرموز والأسرار، ولهَذا فهو يُريد اكتشاف المزيد من أسرار الوجود، وهيهات فكَمْ من سرّ لم يكتشفه الإنسان بعد! فالوجود مُعَقَّد ومُتَداخل على نَحْو نرى معه أن اكتشاف كلّ سرّ من أسراره يؤدّي إلى استشراف المئاتَ من الأسرار الجديدة. الإنسان يغوص واعيا في بحر أسرار الوجود ورموزه، ولذا فهو فريسة حَيْرة ودهشة دائمتين: الحَيْرة أمام الوجود والدهشة من تعقيداته وتداخله.

وعندي أنّ الحَيْرة ستظلّ ملازمة لوجود الإنسان، وبوجودها تتأكّد أهمّيّة موقع الدين في حياته. فالدّين صلَةٌ تَصلُ الإنسان الباحث الواعي ولكن المحدود والعاجز باللاّمتناهَي، بمَركز الوجود؛ خالق العالَم، والعالم العليم بكلّ الرموز والأسرار. وبالطّبع فإنّ إنسانًا لا يُؤْمن في أعماقه بوجود أمر متعال ولامتناه، لَيْسَ بموجود، ولكنّ الإنسان نسّاءٌ يغفل عن الحقيقة السامّية. والغَفلة عن الوجود المتعالي

والمتسامي تعدّ كارثة وفاجعة، كما يعدّ النظر إلى المتناهي والمتغيّر كأنه ثابت ولامتناه، كارثة أيضا. والمؤسف حقّا هو أن ما شَهِدَهُ تاريخ الإنسان من فجائع كان وليدَ هذين الموقفين.

إنَّ حياةً تخلو من إله، إله الأديان السَّماوية بخاصّة ـ وإله العارفين المُخْتَلف عن إله عَبَدَة الخرافة والسَّطحيّين، بل والمُخْتَلف عن إله الفلاسفة أيضا ـ لحياةٌ ضيّقة مظلمة. إله في الأوج من عزّته وجلاله، لإنسان في الحَضيض من عجزه وقصوره، ومع هذا فبوسعه الارتباط به ارتباطًا صادقا ومباشرا، ارتباطًا قلبيا بل ولسانيا أيضا. بوسعه، في عالم يستبدّ به الغموض والإبهام ويبعث في النفس القلق والاضطراب، بوسعه أن يتوجّه إلى مركز الوجود بالخطاب والنَّجوى، يُحادثُهُ ويسمع جوابه. إله جميل يعشقه الإنسان ويتدلّه في عشقه له. إلَه جليل يخافه الإنسان ويخشاه، على أنَّ الخشية منه ليست خشية الذَّليل العاجز أمام القويّ الجائر، إنَّما هي قلق الناقص السّاعي وراء الكمال، أمام كامل وعزيز. الخشية أساس التقوى، والتقوى إنْ صدقت كانت الزهد بعينه. والزّاهد الحقّ يرى الدنيا ملك يمينه ووسيلة تكمل أبعاد وجوده المعنوية والممتازة.

وبالطبع فلقد ابتُلينا، وما زلنا، بزهد سلبيّ وبعرفان سلبيّ وبتديّن سلبيّ، وكلّ هذا من آفات حياة الإنسان وعلامة بارزة تدلُّ على ضيق أفُق الإنسان وتهوّره وسرَعته إلى الخطأ، ولكن هذا أمر ينبغي درسه في أوانه وفي مكانه.

من الواضح أنَّ المُتَدَيّن العارف المُتَفَلّت من إسار الدنيا والقانع

بالنزر الكافي من ضروريات الحياة المادية، ينعم بالسَّكينة والغبطة بقدر أعظم وأعلى من الآخر المتمكّن والثريّ والقادر على كلّ تقنية تُرَفِّهُ عيشه، وذلك لأن لذّة الأوّل هي لذّة ارتواء الروح وهي دائمة، ولذّة الآخر هي لذّة إشباع الجوف والفرج، وهي مُؤَقَّتة مُستعارة لأنّ أسبابها خارجة عن حيطة وجود الإنسان ومتعلّقة بمئات من العوامل الأخرى، فإنَّ الخوف الدائم من فقدها والقلق لذلك، يزيلان ما يستشعره المرء منها بالفعل.

بلى أيُّها السادة، سنجد، إنْ نَحْنُ نَظَرْنا بموضوعيَّة وإنصاف، أنَّ جذور التديّن تَضْربُ عميقا في روح الإنسان، أو على حدّ قول القرآن الكريم، في فطرة الإنسان، ففطرته دينية موحّدة.

ثانيا : جوهر الدّين أمرٌ مُقَدّس متعال، ولو جُرّد الدين من القداسة والسموّ لخرج عن كونه دينا. هذا من جَهة، ومن جهة أخرى فإنَّ وجود القداسة والسموّ إنَّما هو وجود للإطلاق ولانعدام الشُّروط والقيود. فما منْ دين لا يتعامل بالأمر المُطْلَق والمُتسامي، لأنَّ هذه الأمور هي من جَوهر الدين. وهنا أودُّ الإشارة إلى واحدة من الآفات التي تُهَدِّدُ حياة الإنسان الدينية والتديّن على حدّ سواء، والّتي غدت، على نحو ما وطوال التاريخ، مصدر مشكلات كبيرة للبشرية.

قلب الإنسان يُحيط علمًا بالأمر المقدّس المتعالي والّذي هو موضوع الدّين ومادّته. فكلُّ شخص يجد ويوجد في أعماق وجدانه صلة ما بذلك الأمر، وإنْ تكن تلك الصلة غير مفهومة، ولكن المعرفة والإحاطة هذه هي في ذاتها دليل على أنّ روح الإنسان وتلك الحقيقة

السامية إنّما هما من أصل واحد وهو ما أسماه القرآن الكريم بـ «روح اللهّ»، واعتبرت كمال خلق الإنسان.

بَيْدَ أنَّ لوجود الإنسان بُعْدَين: إلهيّا وطبيعيّا. فالإنسان مُنْتَصبُ القامة في السماء وبالتّالي فهو يُدْرك الأمر القدسيّ، ولكنّه في الوقت عينه يقف على قدميه على الأرض، فهو محكوم تاليا بالعيش في هذا العالم. ولأنَّه يعيش في صلب الطبيعة، فإنَّ ذهنه وحياته في تَحَوُّل مستمرّ، فعالَمُ الطبيعة لا يعرف الاستقرار أبدا. ولأنَّ الإنسان موجود طبيعي، فهو محدود الزمان والمكان والاجتماع، وبالتالي فإنَّ معرفته ووعيه نسبيان وقابلان للخطأ.

الإنسان في هذا العالم موجود تاريخي وأسير الزمان والمكان وقابل للتحوّل والتغيّر، فلا جسمه يبقى على حال واحدة بمرور الزمان، ولا عقله أيضا. وبالطبع فإنّني لا أعتقد فقط بأنَّ معارف الإنسان وأفكاره وإدراكه أمور نسبية، وأنه لا ثابت في معرفته، بل أيضا أقول بأنَّ مثل هذه المعارف وإنْ كانت أساسية، إلاّ أنها عامّة جدّا وضئيلة، ناهيك من أنّ مُعْظَمَ معرفتنا النظرية ووعينا العملي نسبيّ ومتغيّر وقابل للخطأ.

إنَّ نسبيّة معتقداتنا ووعينا تكون أعظم جدّية في زمان غياب المعصوم، وليس لدى الإنسان خيار آخر غير مواصلة حياته بهذه النِّسبيَّة. ومن خلال التجربة والخطأ يُصَحِّح معارفه وخبراته أيضا في الحياة وفي التاريخ. ولا يخفى أنَّ قسما من تاريخ الإنسان إنَّما هو تَحَوّل معتقداته وتصوّراته، فهل يبقى إدراك الإنسان على حال واحدة طوال التاريخ؟ وهل كانت معتقدات أيِّ أمّة وسلوكها الديني

على نمط واحد؟ إنَّ كلّ هذا الاختلاف في الآراء بين أتباع الديانات وأصحاب الأفكار المختلفة عبر التاريخ، بل كلّ الاختلافات الأساسية بين مذاهب الدين الواحد، بل أيضا كلّ التّعارض الفكريّ بين فئات المذهب الواحد، كلّها تدلّ على استحالة أنْ يدّعي أحدٌ الإحاطة بالحقيقة كاملة. ولنضرب الإسلام مثلاً. فأيُّ إسلام نريد ونعني حين نتحدّث عن الإسلام؟ أإسلام أبي ذر؟ أم إسلام ابن سينا؟ أم إسلام الغزالي؟ أم إسلام محيي الدين بن عربي؟ أإسلام الأشاعرة؟ أإسلام المتصوّفة؟ أم إسلام الظاهرية؟ أي إسلام؟ بلى إنَّها كُلُّها شواهد تاريخية لا يعتريها الشكّ على نسبيَّة معرفة الإنسان حتّى عن الدين. إنَّنا جميعا، كائنا ما كان الدين الّذي يؤمن به أحدنا، لا نتّفق مع آبائنا لا في التفكير ولا في العمل. على أنَّني لا أقول بأن سنّة التغيّر تدرك كلّ شيء، بل تدرك جلّ شئون الوجود الإنساني. ومن هنا، فإنَّ نسبية العقل والحياة أمر جدّيّ وأساسي.

وإذن فإنَّ أعتى وأضخم مشكلات مجتمع المُتَدَيّنين قائمة في أنَّه يؤمن من جهة بحقيقة وحقائق مُطْلَقَة ومتسامية ومقدّسة؛ ومن جهة أخرى، وبوصفه موجودا، النسبيةُ في عقله وحياته أمرٌ جدّيّ، فإنَّه يرى كلّ هذا في نطاق عقله وروحه النِّسبيَّين، بَيْدَ أنَّه إن كان يعي محدوديّته وأساس التضادّ القائم والمشكلة، فإنَّ مشكلته الداخلية لن تفضي به إلى الكارثة. ولكن الطامّة الكبرى التي تؤدّي إلى الكارثة في مجتمع المُتَدَيّنين، تظهر عندما تُضْفَى قداسةُ الدّين ومطلقيّته على تصوّرات الإنسان عن الدين، مع أنَّها تصوّرات زمانية ـ مكانية محدودة ونسبيّة وقابلةٌ للخطأ. ثمّ يعتقد الشخص أو الأشخاص

المحدودون أنَّ ما توصّلوا إليه إنّما هو عَيْنُ الدّين والدِّيانة. بل ويُخَيَّل إليهم آنذاك أنَّ الشَّخص الذي يعتقد الاعتقاد هذا لَهُوَ مثالُ المُتَدَيّن الحقّ. ومن هُنا تَنْجُمُ أكثر حملات التكفير والرمي بالفسق والفجور، فَضْلاً عن الصدام والعراك.

ها نحن أولاء إذن والدين الّذي هو في ذاته ذو «قداسة» و«سموّ» و«إطلاق»، وبيننا أمر مشترك اسمه العقل، والّذي هو وسيلةٌ لفهم هذا العالم ووسيلة للإفهام والتّفاهم بين الناس أيضا. ولئن كنّا نعتقد اعتقاد الكثير من الفلاسفة بأنّ عقل الإنسان يتحلّى بجملة من الثّوابت ومن الاقتناعات المُطْلَقَة والّتي تكون معتبرة دائما وفي كلّ آن، فمن الإنصاف الاعتراف بأنَّ الإنسان، في عقلانيّته وفي إيجاده حلولاً لمعضلاته بواسطة العقل، مُبْتَلًى بأنَّه محدود إلى درجة أنَّ جانبا عظيما من معارفه وتصوّراته ومعلوماته، وبسبب من تأثره بما لا يُحصى من المعوّقات، لَتصوّراتٌ ومعارفُ نسبية، فهو عرضة للخطأ. وما التحوّلُ العظيم الذي يطرأ على عقولنا وحياتنا لحظة فلحظة، واختلافُ الآراء وتباين الأفكار والرؤى القائم بين أتباع الديانات المختلفة وبين مذاهب الدين الواحد أيضا، هذا التحوّل ليس إلاّ الشاهد الناطق الذي يشهد على صحّة ما ندَّعيه. ومن الإنصاف أيضا الاعتراف بأنَّ وسيلتنا المشتركة والمباركة في الوقت نفسه للعودة إلى الوجود والطبيعة، والتي هي كتاب الخلق والتكوين، من جهة، وإلى الوحي الإلهيّ والّذي هو كتاب الديانة والتشريع، من جهة أخرى، إنَّما هي العقل مع إدراك أنَّ الفهم الإنساني فهم محدود ومتغيّر.

أوَ يَعني هذا أنّ جميع أبواب الحقيقة موصدة أمام عقل الإنسان؟ نَحْنُ نعلم أنَّ بعض فلاسفة العصر الحديث في الغرب قد أجابوا عن هذا السؤال بالإيجاب. فهم إمّا أنكروا الحقيقة المطلقة وإما أعلنوا في أحسن الأحوال، أنَّهم لا يعرفون إليها سبيلاً، وبالتّالي توصّل أكثر المفكّرين الغربيين إلى هذه النتيجة بشأن الدين، وهي حتمية وضعه بالكامل جانبا أو على الأقّل نبذه من الحياة الاجتماعية.

بلى، ها نحن أولاء والعقل الّذي هو محدود وعُرْضَةٌ للخطأ، والّذي لم يوجد معنًى محدَّدٌ له ولا مفهوم واحد، لا في القديم ولا الآن، الأمر الّذي لا بدّ من التنبّه له.

ولكن كَيْفَ يُقنع هذا الكلامُ مُتَدَيِّنا يُؤْمنُ من صميم روحه بإله قادر حكيم؟ نحن نعتقد أنَّه من غير الممكن أنْ يدعو اللّه عزّ وجل عباده إلى دين ما، من دون أنْ يكون هناك سبيل لبلوغ حقيقته. أنْ يدعو إنسانٌ إنسانًا إلى مكان لا يمكن بلوغه، فذلك أمرٌ مُسْتَهْجَنٌ وقبيح، فكيف بالحرى إذا ما كان الداعي إلهًا نَصِفُهُ بالحكمة وبأنه مبدع العقل؟!

السَّبيل المطمئنّ لمعرفة اللّه عزّ وجلّ، عندي، هو طريق الوصول لا الفهم؛ وطريقُ القلب لا العقل. هو الطريقُ الذي أكّدته الأديان بقوّة. ولقد علّمنا أئمّة الإسلام بأنَّ «العَقْل ما عُبِدَ به الرحمنُ واكتُسبَ به الجنان». وهذا يعني أنَّ العقل هنا هو مَصدر عبادة لا مصدر فهم. وفي قول آخر رأوا العبادة سبيلاً إلى اليقين وليس الانتقال من المقدِّمات المعلومة إلى النتيجة المجهولة، ودليل هذا ما

جاء في القرآن الكريم: ﴿واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين﴾ (الحجر ١٥: ٩٩)، وهذا يعني أنَّ الطريق المطلوب للمعرفة الدينية الإلهية هو طريق الوصول لا الفهم. وهذا بطبيعة الحال لا يعني، بأيِّ وَجْه، التَّنكّر لقوّة العقل والمعرفة الفلسفيةوالعملية، وخاصّة في الإسلام الذي اهتمّ، إلى حدّ بعيد، بالعقل وبالتدبّر. ولكنْ لا بدّ من معرفة حدود كلّ بعد من أبعاد روح الإنسان، ومن أراد أن يكون مؤمنا صادقا فلا بُدَّ له من سلوك طريق القلب.

حقيقة التديّن تجربة وليست فكرا. إنَّها تجربة عناصرها بناءُ الذات والتَّحكُّم بهوى النَّفس والتَّسليم لمركز الوجود ذي العزّة والجلال وفناء القلب في حبّ المحبوب. وإذا ما سلك الإنسان هذا السبيل وطواه وَصَلَ إلى اللّه. والوصول ليس مُفْرَدَةً من مفردات الفهم، لأنَّ الفهم شأنٌ من شئون العقل. فمن خلال تجميع المفاهيم المعلومة يتمّ التوصّل إلى المفهوم المجهول. على أنّ الفهم في الغالب أمرٌ نسبيٌّ يتناسب وأوضاع العقل والموقع، زمانا ومكانا، فضلاً عن عوامل داخلية وخارجية أخرى لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

ليس ما قلناه بالأمر الجديد؛ فالكثير من النّصوص الدينية التعليمية، فضلاً عن أن عظامَ العارفين قد شهدوا جميعا بعجز العقل وضعفه، وأكّدوا أنّ أقدامَ أهْل الاستدلال، أي الفلاسفة، من خشب. ومعلوم أنَّ قَدَمًا من خشب لأوهى من أنْ تُقاوم. وهم بذلك تجاوزوا العقل في بحثهم عن الحقيقة، وهاموا في البحث عن عقل العقل. وهنا تَرِدُ ملاحظة كبيرة الأهميّة، وخلاصتها أنَّ عظماء كأبي علي ابن سينا وَكثيرا من الفلاسفة الذين استندوا إلى العقل بقوّة في

نشاطهم، واعتبروا أنَّ المعرفة الصحيحة هي المعرفة العقلية والاستدلالية، هؤلاء العظام لم يزعموا، في أيِّ وقت، أنَّ بوسعهم التوصُّل بواسطة العقل إلى إدراك الحقيقة والحقّ والمتعالي. إنَّ هذا العقل يُحَقِّقُ إنجازا كبيرا إنْ هو أمكنه إيصالنا إلى حدود الحقيقة لا كنهها.

طريق القلب طريق يوصلنا إلى الحقيقة. وحقيقة الدين تجربة يُمارسها الإنسان المتديّن من أعماق روحه وصميم فؤاده، وكم من الفلاسفة العرفانيّين، وكَمْ من العرفانيّين النظريّين قد حاولوا تبيان الجهة المعقولة لهذا السير وهذا السلوك، ولكن هيهات، فالطريق طريق وصول لا طريق فهم.

والملاحظة المهمّة في هذا المجال هي أن السّالك الواصل هو وحده الذي يُدرك الحقيقة عن طريق القلب، الطريق المطمئنّ لبلوغ الحقيقة؛ وبتعبير آخر، إنَّ طريق القلب طريقٌ فرديٌّ وليس طريقا جماعيا، ولا بُدَّ لكلّ شخص من سلوكه بنَفْسه حتّى يصل، فإذا ما وَصَلَ لم يَسَعْهُ نقل حقيقة وعيه الذي هو من أصل الشهود بالمفاهيم والمعرفة المكتسبة.

ولكنَّ الإنسانَ، من جهة أخرى، كائنٌ اجتماعي مضطرّ للحياة على الأرض بجوار الآخرين. ومثل هذا الوجود يحتاج إلى وسيلة يُشاركه فيها الآخرون، فتُتيح له إمكانية الاتّصال والارتباط بهم. فاللغة عنصر مهمّ في ارتباط الناس، بعضهم ببعض، واللغة أداة تُعَبّر عن حقيقة معنوية موجودة في ذهن الإنسان. فالإنسان يتمتّع بالفهم

والوعي، وفهمه ووعيه وانطباعاته وأحاسيسه هي من جملة الأمور التي ينقلها إلى الآخرين بواسطة اللغة وبها يطلعهم على ما يدور في خلده ويعتمل في نفسه.

النُّطق مؤشّر العقلانية، وأعني بالعقل هنا القوّة المشتركة بين جميع الناس والمرتبطة بالمفاهيم؛ فبالعقل يتمّ الفهم. ثُمَّ إنَّ فهم الإنسان هو الذي يربط بين العقل وموضوع المعرفة. وهذا الفهم تابع ـ إن لم يكن دائما وفي كلّ وقت ففي معظم الحالات ـ للكثير من الظروف والأحوال الخارجة عن نطاق إرادة الإنسان ووجوده. ورغم أن الإنسان من حيث الاستعداد كائن لامتناه ـ والحقّ أنَّ عظمة وجود الإنسان عصيَّة على البيان بمعايير المادّة والطبيعة المجردة ـ فإنه موجود ومحدود دائما بحدود الزمان والمكان، وبالتّالي فإنَّ آفاق رؤيته ضيِّقة. إنَّه موجود يتأثّر بأنواع الأحاسيس والعواطف، ولايُمكن لعقلانيته ألا تتأثّر بميوله وتوجّهاته العاطفية. وكلّ هذا يستدعي كون عامل الفهم والارتباط المشترك بين الناس أمرا نسبيا، في معظم الحالات، وعرضة للخطأ في الكثير من الموضوعات. والتحوّل الذي تشهده تصوّرات الإنسان في كلّ الأبعاد تقريبا لَشاهدٌ ناطقٌ، في حدّ ذاته، على صحّة ما أذهب إليه، ولا أحسب أنَّ ثمّة مَنْ يرفض ذلك كلّيا.

الإنسان، على ما يبدو إذن، يحمل في أعماق وجوده ما يدُلُّ على عالَم أسمى، ولكنّه، وعلى أى حال، يعيشُ في هذا العالم بكلّ صفاته وحدوده، ويمتلك وسيلة اسمها العقل يتلخّص عملها في فهم هذا العالَم. وبالطبع فإنَّ فهم العالَمِ، شأنُه شأنُ العالَمِ نَفْسِه، غيرُ

ثابت ومتغيّرٌ وعرضَةٌ للخطأ. ولا مفرَّ للإنسان من تَوَسُّل هذه الوسيلة التي منحه إيّاها خالقه ما دام حيّا وموجودا يعيش وسط الجماعة.

والإنسان بواسطة العقل يتناول بالفهم والدراسة الكتابَيْن معًا: كتاب الوجود والطبيعة الذي هو كتاب الخلق والتكوين، وكتاب الوحي والشريعة وهو كتاب التشريع والدين.

بلى، إنَّ بوسع الإنسان الاتّصال بمبدأ الوجود وبحقيقة الدين، عن طريق القلب ومن خلال تجربة عملية وسلوكية. فدين كلّ شخص إنَّما هو تجربة ذاتية تتحقّق إثر الاتّصال الوجوديّ بالمبدأ أيضًا. بَيْدَ أنَّنا، وبوصفنا كائنات عاقلة ومختارة تحيا في هذا العالم وتعيش في قلب الجماعة، فإنّ وسيلتنا المشتركة هي فهمنا الناتج عن قوانا العقلية المشتركة، فنحن نفهم الدين كما نفهم الطبيعة؛ وعلى أساس فهمنا نُكَوِّن العلاقة مع الآخرين. ولكن، ومهما كان فهمنا ثابت البنيان، فإن أُسُسَهُ نسبية وعرضة للتغيّر.

وهنا بالضَّبط تنجلي أمامنا واحدة هي أهمّ وأبرز مشكلات مجتمعات المُتَدَيّنين، وخلاصتها أنَّ الكثير من المتديّنين ينقلون القداسة والإطلاق والسمو، والتي هي صفات جوهر الدين وحقيقته، ينقلونها إلى تصوّراتهم النسبية والمحدودة، وإلى فهمهم عن الدين، وهو فهم محدود بالزمان والمكان، حتّى إذا ما عجزت تصوّراتهم السابقة، بسبب من مرور الوقت والتحوّلات الطارئة على عقل الإنسان وحياته، عن الإجابة عن تساؤلاتهم، فإنَّهم بدلاً من

التخلّي عن تصوّرهم المحدود، وإزاحة السِّتار عن كيان الحقيقة والعودة إلى مصادر الدين الفكرية والأخلاقية، للنظر فيها بعيون جديدة، لتحصيل تصوّر جديد عن الدين أكثر تكاملاً وأشدّ فاعلية، إنّهم بدلاً من ذلك يُحاولون، وبأيّ ثمن، فرض تصوّرهم الناقص على الواقع، الأمر الذي لا يدوم على المدى البعيد، ولكنّه يفضي إلى كارثة على المدى القريب لا محالة. فنظرة إنسان اليوم إلى عالَم الطبيعة تتباين تباينا عميقا مع نظرة إنسان الأمس إلى ذلك العالَم. وفي الماضي، وكما هو معلوم، جرت محاولة إضفاء هالة القداسة حتّى على علوم الطبيعة وعلى تصوّرات البشر للطبيعة، وقد حَدَثَ أنْ تمَّ الاعتراف رسميا بتصوّر الكنيسة أو بعض المؤسّسات الدينية الأخرى للطبيعة، دون أن يجدَّ جديد أو يُبْتكر أيُّ شيء في هذا المجال لمدّة قرون، ومن ذا الذى لا يعلم بمعاناة العلماء والمفكّرين في هذا المضمار نتيجة ما مورس عليهم من ضغوط. ولكنّها نظرة كانت وتغيّرت شيئا فشيئا، الجميع الآن يؤمنون، على نحو ما، بضرورة استخدام العقل والعلم للتعرّف على أسرار الكون والطبيعة، وضرورة التوصّل إلى نظرية تحظى بالثقة الكافية للإجابة عن التّساؤلات، ولتلبية الحاجات. وإنَّ هذه النظرية مُعَرّضة دائما للتعديل والحذف والإبطال. ومثل هذه الرؤية والحكم ليسا بالمقبولين في مجالي العلوم الإنسانية والاجتماعية، ولكن ينبغي بالطبع التمييز بين البحوث العقلية الصِّرف والموضوعات التجريبية. فالكثير من الفلاسفة والمفكّرين يعتقدون بوجود أصول عامّة وثابتة في مجال العلوم العقلية، إلاّ أنَّ العلوم العقلية والإنسانية لا تقتصر على هذا

العدد من الأصول الكلّية. بل إنَّ تصوّرات الإنسان العقلية في الأساس إنّما هي موضوعات نظرية يتمّ استنباطها واستنتاجها من موضوعات نظرية أخرى، أو من أمور بدهية ونظرية أحيانا، ومن خلال هذه الاستنباطات والاستنتاجات النسبية والمحدودة والخاطئة نفسها تَتَّضحُ حقيقتها. وخلاصة القول أنَّ تصوّرات الإنسان عن الطبيعة وعَن الدين قابلة للتغيّر والتحوّل، طالما أنَّها شأن بشريّ «لاطبيعيّ» في جوهره و «لاديني» (*).

والإنسان، حين ينظر في كتاب الطبيعة أو يتأمّل في كتاب الشريعة، أي حين ينكبّ على دراسة «الكون» و«الوحي»، فإنَّه يستمدّ النظر والدراسة من عقله وقوّة فهمه؛ وما فهمه إلاّ ما يتصوّره عن هذين المصدَرَيْن. وتصوّره هذا تصوّر إنسان للحقيقة محدود ونسبي. وكما أنَّ تحوّل رؤية الإنسان للطبيعة ومعرفته بها لا يُغَيّران في واقعها شيئا، فإنّ تحوّل نظرة الإنسان إلى الدين وتغيّرها لا يُوَجِّهُ لطمة إلى حقيقة جوهر الدين ولا إلى قدسيّته وسموّه، بل إنَّ الضَّرر والأذى يلحقان بجوهر الدين عندما يتصوّر الإنسان ـ أيّا كان ـ أنَّ ما يتصوّره عن الدّين هو الدين بعينه لأن هذا يعني خنق كلّ رؤية أو فكرة أو نظرة أخرى. ومَنْ ذا الذى لم تبلغ مسامعه أخبار حملات التكفير والرمي بالفسق والاصطدامات والحروب التي شغلت مسرح التاريخ، وكانت كلُّها ابنة هذا الخطأ المميت. وكان المُصاب الأوّلُ في هذه المعمعة هو الإنسانَ، فلقد عُطِّل ذهنه الفاعل المتوقّد أمام الحقيقة،

(*) ليست هى جوهر الطبيعة ولا جوهر الدين.

ناهيك من إصابة الدين أيضا، وذلك لأنَّ الفكر، وعلى أثر تحريره بُعَيْدَ زمان الاضطهاد أيّام كان تصوّر الدين يظهره في لبوس ضيّق وهيئة قاتمة مظلمة، قد أساء الظنّ بأصل الدين.

نصل الآن، باعتبار ما تقدّم كلّه، والذي كان في الواقع مقدّمة للبحث، إلى الملاحظة التالية، والتي هي بمثابة استنتاج من البحث:

تَتَلَخَّص خدمة الدين في عصرنا في التمييز، بشجاعة، بَيْنَ جوهر الدين كشأن مقدّس ومتسام، وبين تصوّرات الإنسان عنه، والتي هي أمرٌ محدود ونسبيّ ويدركها التغيّر. وبذا تظلّ للدين منزلته المقدّسة في أعماق أفئدة المؤمنين، وتفتح، من جهة أخرى، آفاق التحوّل الإيجابي في الفكر الديني.

وبملاحظة واعتبار ما وُجدَ من تصوّرات عن الدين، متباينة بل ومتعارضة أحيانًا فيما سلَف من الزمان، وبالنظر إلى ما كان من اختلاف بين تصوّر أهل العرفان والفلاسفة وأهل الحديث والظاهرية، فإنّني آمل ألاّ نَحْسب أنَّ ما توصّلنا إليه هو حقيقة الدين. المهمّ هو أنْ تكون عودتُنا المتواصلة والدائمة إلى المصادر الدينية عودةً تأخذ بالأسلوب الصّحيح والعلمي والمنطقي، وتسلك طريقا محدّدا ومجرّبا. وذلك لأنَّ الأساليب والسُّبل تتحوَّل وتتكامل مثل أيِّ شأن إنسانيٍّ آخرَ. **وصحيح أنَّ الدين شأنٌ مقدّس، ولكن لا بدَّ من القبول بحقيقة أنَّ تصوّرنا له موضوعٌ بشريٌّ دائما. وحينئذ، وهذا أمر مهمّ، يُخَفِّفُ الإنسان من غلوائه ويتواضع ويفتح أحضانه دائما لكلِّ إبداع، وللاستفادة من تجارب الآخرين الفكرية والمدنية.**

وحالتئذٍ يمكنه، بل وينبغي عليه، أنْ يكون فهمه أكثر حيوية

وفاعلية بما يتناسب والتّساؤلات والاحتياطات التي تَتَجَدّد لحظة فلحظة، تلك التساؤلات والاحتياطات التي يرتبط مصير حياة الإنسان بالإجابة عنها. وكما أسلفت، فإنّه لا يمكن، بالطّبع، اعتبار كلّ تصوّر لا أساس له تصوّرا دينيا مؤكّدا، كما أنّه لا يمكن اعتبار تصوّر أيّ شخص كان، عن الطبيعة، كما يحلو له، علْما من علوم الفيزياء أو علوم الطبيعة.

إنّ التصوّر الدّينيّ الموثوق به، مثله أيّ تصوّر علميّ ومنطقيّ، رهينٌ بتمسّكه بمصادر الفكر الدينيّ، وبالقرآن الكريم بخاصّة فيما يعنينا نحن المسلمين، ومنوطٌ أيضا بالإحاطة بالأساليب المدروسة لاكتساب المعرفة والاستفادة منها. ومن ثمّ، وبعد اجتياز هذه المراحل، تبقى المعرفة التي نكتسبها تعبيرا عن تصوّرنا للدين، وهُنا يتجلّى خلوده، فهو لا ينحصر ولا يقتصر وليس وَقْفًا على تصوّر محدود بزمان ومكان بعينهما.

إنّ من شأن رؤية كهذه الرؤية أنْ تفتح السُّبُل أمام التحوّل في جميع شئون حياة المتديّنين، من دون أنْ يعمل أصحاب الفكر المنحرف على تضييق المجال أمام الفكر باسم الدين، ومن غير أن تلحق أذًى بحقيقة الدين وقدسيّته وسموّ جوهره.

من جهة أخرى فإنّ تصوّر الدين، الحيّ والفاعل، منوط بالحضور وبخوض معترك الحياة في هذا العصر. والحضور في عالم اليوم لا يَتَيَسّر من دون معرفة دقيقة بأهمّ حوادث العصر واكتشاف أمثل الطرق للتعامل معها، وفي الوقت ذاته المحافظة على الهويّة التاريخية

ـ الثقافية. وفي يقيني أنَّ الحضارة الغربية هي الحدث البارز في عصرنا، على رغم أنَّ الغرب يفتقر إلى واجهة سياسية مقبولة بالنسبة لنا. فمن النّادر أنْ تجد شعبا أو بلدا غَيْرَ غربيٍّ لم تُلْهب ظهرَهُ سياطُ ظلم الغرب السياسي والاقتصادي، سواء في صورَته الاستعمارية القديمة أم عبر نزعة التَّسلّط المعاصرة التي تركبه وتسيطر عليه. بَيْدَ أنَّ الغَرْب السياسيّ ـ الاقتصادى ليس إلا وجها من وجوه الغرب. فالغرب بأجمعه هو حضارة ذات ثقافة خاصّة، وهذه الحضارة وهذه الثقافة قامتا على مبادئ فكرية وقيَمية خاصّة، ومن دون التعرّف عليها والإحاطة بها، تبقى معرفتنا بالغرب معرفة سطحية وظاهرية ومضلِّلة.

لا بدّ لنا في مرحلة المعرفة من النَّظر إلى الغرب نظرة محايدة لا تشوبها العواطف، إن جازت العبارة، لنتعرّف عليه ولنقف على أبعاده، وآنذاك ينبغي علينا التنبّه واليقظة لدرء أخطاره من جهة، وللاستفادة من إنجازاته ومعطياته الإنسانية من جهة أخرى. وكلّ هذا ممكن إذا ما نضجنا فكريا وتاريخيا. ففي ظلّ ذلك تتوافر لدينا القدرة على التشخيص والانتقاء، ويتوافر قبولنا بمسئولية انتقائنا واختيارنا.

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.